مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

تاريخ المعجم التاريخي العربي (متع) في نطاق العربيّة: المبادرات الرائدة

بحث: الاستاذ الدكتور محمد رشاد الحمزاوي

أ العرب وقضية التأريخ لمعجمهم:

إنّ الحديث عن المعجم العربي التاريخي في العصور الحديثة وعن قضاياه ووسائل انجازه، وعن مقاربته الأولى في زماننا هذا، تستوجب قبل الحديث عنها ان نتساءل عن الأسباب والمسببات الممكنة التي منعت من ان يدرك العرب القدامى والمحدثون **مفهوم المعجم التاريخي**، مثلما هو الشأن في اوروبا. ويزداد استغرابنا من هذا الموقف بقدر ما نعلم ان المعجمية العربية أطول عمرا وأرسخ قدما من المعجمية الاوروبية بجميع أنواعها وأجناسها. فان ربطنا المعجمية العربية في مفهومها الكلاسيكي بكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ)، لاحظنا ان المعجمية العربية قد قطعت أشواطا هامة، وخلقت نماذج من المعاجم المتميّزة لم تدركها المعجمية الاوروبية الرائدة الا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وما بعدهما إذ لم يظهر مصطلح المعجمية (Lexicographie) الا في سنة 1680

م بانكلترا وسنة 1716 م بفرنسا [1].

1 ـ 2 : تواجهنا في هذا الصدد معطيات متناقضة لا يمكن لنا ان نعتمدها حجّة كافية للحكم على العرب أو لهم في هذا الميدان، إذ توجد احتمالات عديدة عن موقف المعجمية العربية من المعجم التاريخي العربي. إن عصر التدوين الذي ابتدأ حوالي سنة 148هـ قد كان منطلقا لمبادرات عديدة لا تخلو من الجرأة وروح المغامرة. فلقد طلع علينا الخليل في كتاب العين بنظرية معجمية مكتملة بلغت أصداؤها العصر الحديث ونظرياته [2]. وزودنا سيبويه في نفس الفترة تقريبا بالكتاب، وهو مؤلف جامع شامل له أبعاد لسانية وبنيوية لا تخفى، [3] فكيف لم يفكرا مع غيرهم من المعجميين بالخصوص، في التاريخ لألفاظ اللغة المستوعبة في المعاجم، خاصة وان الخلافات في الرواية الشعرية كانت متفشية، والرواية في الحديث مضطربة، وقراءات القرآن متعددة، والشعوبية في الأفق معلنة، مما كان يفرض ضرورة التأريخ لهذه التظاهرات سعيا إلى التوفيق بينها، إسوة بتقاليد ثقافية تعتمد التأريخ اساسا لها، من ذلك سيرة الرسول (صلعم)، وتاريخ الخلفاء، والصحابة والتابعين، وأعمال الملوك والأمراء، ومناقب الأشراف والصحابة والأولياء، فضلا عما كان للعرب من عناية وشغف بلغتهم لأسباب عقائدية وثقافية وحضارية ،حتى قال فيهم أوغيست فيشر، المستشرق الألماني،

---

(1) ـ محمد رشاد الحمزاوي : اعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ دار الغرب الاسلامي بيروت 1988 ص 491

(2) ـ محمد رشاد الحمزاوي : النظريات المعجمية العربية وسبلها في استيعاب الفكر العربي ـ تونس 1989 ـ دراسة قدمت لمؤتمر وزراء الثقافة المنعقد بالرباط ـ ديسمبر 1989 .

(3) ـ M.G.Carter التراث اللغوي العربي الاسلامي ـ ترجمة رشاد الحمزاوي انظر من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا ـ بيروت 1986 ص 179 ـ 199

والمبادر الاول لوضع معجم تاريخي عربي «**وإذا استثنينا الصين، فلا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته، وشعوره المبكر بحاجة الى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد**» [4].

1 ـ 3 : ولقد اعتبر بعضهم ان الثقافة العربية الاسلامية تكاد تتميّز عن غيرها بعلم التاريخ الذي رسخ قدمه عبد الرحمان بن خلدون، ووضع مبادئه ومقاصده في تصور المجتمعات والحكم لها أو عليها. فكيف يمكن لهذه التقاليد ألا تهتم بأهم مظهر من مظاهرها، وهو اللغة، ولا تؤرخ لها في معاجمنا التي تعتبر في نهاية الأمر مدونات، تؤرخ للغة الاعجاز القرآني وما تبعه؟ وكنا ننتظر آثار معالجة هذه القضية في عهد الاحتجاج (القرن الرابع الهجري) الذي سعى الى أن ينظر نظرة نقدية الى الرصيد الثقافي والفكري واللغوي الذي أنتجهُ الفكر العربي الاسلامي. إلا اننا لا نجد أثرا يذكر في هذا الشأن. ولقد تواصل هذا الامساك عن المسألة حتى العصور الحديثة، مرورا بإضاءة الراموس لأبي الطيب الصميلي المغربي (1699 ـ 1761) [5] الذي أخذ عنه احمد فارس الشدياق (1804 ـ 1884) في الجاسوس على القاموس، [6] وقد اعتبره بعضهم ثورة على المعجم التقليدي العربي ومناهجه، دون ان يكون للقضية أثر في مؤلفه، وإن كان قد عالج فيه قضايا عديدة تتصل بتحديث المعجم العربي وتطويره. ولم يبرز مفهوم

---

(4) ـ أ. فيشر: المعجم العربي التاريخي، القسم الاول، نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1387هـ/1967م ص 4

(5) ـ ابو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الصميلي: إضاءة الراموس وإضافة القاموس على إضاءة القاموس ـ تحقيق عبد السلام الفاسي والتهامي الهاشمي ـ مطبعة فضالة بالمحمدية المملكة المغربية ـ 3 أجزاء والباقي في الانتظار.

(6) ـ محمد رشاد الحمزاوي: منزلة الجاسوس على القاموس... من إضاءة الراموس مجلة حوليات الجامعة التونسية عدد 28 (1988) ص 19 ـ 27

المعجم التاريخي العربي إلا في سنة 1934، عندما أنشىء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعرض عليه المستشرق الألماني أوغيست فيشر (1865 ـ 1949) [7] معجمة التاريخي العربي.

1 ـ 4: فما هي أسباب ذلك؟ يبدو ان الأمر يعود إلى ذهنية ثقافية لا تخلو من نظرة عقائدية مركبة، من ذلك أنّ الصراع الذي قام بين ثقافة العصر الجاهلي المتقلّص وثقافة العهد الاسلامي العربي الصاعد، قد أسس لمفهوم القطيعة بين العهدين وتواصل ثقافتيهما ولغتيهما ومالهما من صلة رحم. فلغة الجاهلية كانت تبدو في مرحلة أولى أساسية غير مؤهلة لتكون بصريح القول لغة أمّا للغة القرآن، الذي سيعتمدها ضمنيا في الجدل والحجج لتأهيل فصاحته وعروبتها، فضلا عمّا استعمله من لغة الجاهلية ومفاهيمها التي أصبحت مفاهيم إسلامية. [8] ويعزى ذلك الى عامل آخر، وهو النفور من كل ما له صلة بعلم أصول اللغات وفصائلها وما لها من تعامل وتداخل وأثر وتأثير وسبق وتبعية. فالعربية لغة القرآن، وهي بالتالي أم اللغات وأشرفها مثلما يؤكد على ذلك ابو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر [9]. ويظهر هذا النفور من التأريخ من خلال المعركة القديمة الحديثة المتفجرة المتعلقة بالدخيل والمعرب والأعجمي في العربية عموما، وفي القرآن بالخصوص. ولقد طغى الطابع العقائدي [10] على المظهر اللغوي حتى قال ابو عبيدة معمر

---

(7) ـ محمد رشاد الحمزاوي: اعمال مجمع القاهرة ص 97 ـ 98

(8) ـ محمد رشاد الحمزاوي: النظريات المعجمية العربية السابقة الذكر حاشية (2)

(9) ـ ابو منصور الثعالبي: يتيمة الدّهر (المقدّمة)

(10) ـ محمد رشاد الحمزاوي: العربية والحداثة او الفصاحة فصاحات ـ بيروت 1986: اللغة مرآة العقيدة ص 139 ـ 156

بن المثنى «من زعم ان في (القرآن) غير العربية فقد اعظم القول»، وان كان ابو ميسرة التابعي قد روى عن رسول الله : « وفي القرآن من كل لسان» [11]. والمعرب او الاعجمي عموما موضوع من اهم مواضيع المعجم التاريخي العربي، لايمكن البحث فيه الا في نطاق حيزه التاريخي.

1 ـ 5 : **فالعربية في هذا المنظار تكاد تكون قبل التاريخ، وفوق التاريخ وخارجة عن التاريخ، لا تاريخ لها إلا انعدام تاريخها**. ولعل ذلك يعود كذلك الى ما يسميه العابد الجابري بمقاربات العقل المستقيل الذي نشأ من الافلاطونيّة الحديثة وأثرها في التيارات الشيعية والصوفية، ومالها من تأويلات وتخريجات باطنية متنوعة.

إلاّ ان هذه الاحتمالات تقابل احتمالات أخرى تبيّن أن للثقافة العربية علامات تعتبر محاولات محتشمة، يمكن ان نتحسس منها مقاربا ت تؤرخ لمحتوى المعجم العربي. وتظهر تلك المقاربات من خلال المعطيات التالية :

ـ أ ـ الابتداء بالتأريخ للغة العربية من العرب العاربة وما لهم من فروع وقبائل تستحق التدقيق والتمحيص

ـ ب ـ ربط مفهوم الفصاحة مكانا وزمانا بقبائل معينة يمكن التأريخ لها.

ـ ج ـ اعتماد منهجية الرواية، وما لها من إسناد وعنعنة حسب قيود وشروط لا تخلو من الدقّة. ونجد لذلك آثارا في مداخل المعاجم والموسوعات اللغوية.

---

(11) - جلال الدين السيوطي : الاتقان في علوم القرآن القاهرة 1951 ج135/1

(12) ـ محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت 1984 ، 351 ص حيث يتعمق في هذه الظاهرة وميادينها

ـ د ـ مفهـوم المـدونـة [13] بالمعنى الاصطلاحي اللساني الحديث. وقد اعتمدها بعض المعجميين الكبار من أمثال ابن فارس في المقـاييس وابن منظور في لسان العرب. فلقد ركز الاول معجمه على خمسة مراجع وهي: كتاب العين للخليل، وغريب الحديث ومصنف الغريب لابي عبيد، وكتاب المنطق لابن السكيت، وكتاب الجمهرة لابن دريد. أما ابن منظور فلقـد أسس معجمـه على تهذيب الأزهـري، وصحـاح الجوهري، ومحكم ابن سيده، وحواشي ابن بري، والنهاية في غريب الحديث لابن الاثير [14]. وفي تلك المعـاجم المصـادر المتعـاقبـة عنـاية بتـاريخ المراحل الكبرى للغة، وإن كانت معـاجمنـا قد فضلت على التـاريخ النظريـات الكفيلـة باستيعاب الفكر العربي قبل التأريخ له [15].

II نشأة المعجم التاريخي العربي: (متع) ـ معجم فيشر.

2ـ 1 : إن مفهـوم المعجم التـاريخي اللغوي، مهما كانت اللغة التي ينتسب إليهـا، هو وليد العصـور الحديثة وخاصة اللسانيات المعاصرة ابتداء من القرن الاسع عشر. فلقد اعتنت اللسانيات العامة وخاصة اللسانيات المقارنة [17] بأصول اللغات وما لها من صلات تقارب وتنافر، وما تتكون منه من فصائل يبدو أنها

---

(13) ـ محمد رشاد الحمزاوي : مفهوم المدونة عند ابن منظور، من قضايا المعجم العربي ص 139 ـ 147

(14) ـ ابن منظور: لسان العرب ـ المقدمة

(15) ـ محمد رشاد الحمزاوي : النظريات المعجمية العربية السابقة الذكر

(16) ـ L. Kukenheim, Esquisse historiqque de la linguistique française - Leiden 1962; p 43-45

(17) ـ نفس المرجع ص 55 ـ 58

معتمـدة على معـايير صوتية متينـة، أيدتهـا قاعـدة الأخوين غريم [18] الصوتية، وعلى قواعد صرفية ونحوية متميزة أسست لها مدرسة **النحويين الجدد** [19] الالمان (Neo Grammairiens) الـذين قالوا «إن اللغة تتطور بمعزل عن الارادة الانسانية، بحسب القواعد الصوتية، فلا يوجد شيء شاذ، ولا عرضي، بل ان كل شيء مبرر فيها» [20].

فلقـد توفـرت للغـة وسـائل منهجية وإجرائية مكنتها من خوض غمار البحث عن أصـول اللغـات وخصائصها المميزة وتـداخلاتها المتنوعة عبر العصور. ولقد تولد عن ذلك علوم أخـرى مهمة في هذا الميدان، منها اللسانيات الجغرافية التي اعتنت بالموروث الشعبي القديم وعلم أصول الكلمات، [21] الذي تـدعّم مع النحويين الجدد، واشتد ساعده ابتداء من سنـة 1935. وراجت سوق الـدراسـات المقـارنة، لا سيما دراسات اللغات السامية، وما لها من صلات مدهشة عندما لاحظ الـــدارســـون ان العـربية والعـبرية والحبشية أخـوات ساميات، وان السنسكريتية الهندية أم اللغات الهندواوروبية مثـل الفـارسية والاردية، والالمـانية والفـرنسية، والانكليزية واليوناينة التي تدعى كلها باللغات الهندواوروبية.

2 ـ 2 : **إن هذه «الاكتشافات»** اللسانية والثقافية كانت أساسية لربط الصلة بين اللغـة والتاريخ، ولتركيز مفهوم المعجم التاريخي الذي يحويها. والملاحظ ان العرب لم يكونوا على علم ولا على **دراية بهذه «الاكتشافات»** ومناهجها وتكنولوجياتها، ولم يكن لهم فيهـا باع ولا اختصـاصيون الى يوم الـدين هذا، مجابهة لمستلزمـــاتهـا ومقتضياتهـا، ومنهـا المعجم التـاريخي العـربي

(18) ـ نفس المرجع ص 44

(19) ـ نفس المرجع ص 68

(20) ـ نفس المرجع

(21) ـ نفس المرجع ص 149 ـ وعلم أصول الكلمات هو ما يعبر عنه بالفرنسية بـEtymologie

وشروطه. وذلك ما ينسر على ما يظهر تأخرهم عن معالجة هذه القضية الأساسية.

إننا نعتقد ان اول من بادر بالتأريخ للعربية هو المستشرق الهولندي دوزي Dozy في معجمه **تكملة المعاجم العربية** [22] ولقد دعم عمله ذاك ما نُشر من أمهات الكتب والمصادر والمراجع في عهد النهضة بالعالم العربي، وخصوصا بمصر وبمراكز الاستشراق بأوروبا. والملاحظ أنه قد اعتمد فيها المصادر الاندلسية والمغربية والأعجمية المزدوجة اللغة، مع ميل واضح الى كتب التاريخ والرحلات والآداب العامة .ولقد امتاز عمله بتوثيق أصول الكلمات بنصوصها مما مكنه من التأريخ لها، [23] إلا ان ذلك لا يمنع من الاشارة إلى هنات هذه المقاربة. فهي قد ركزت على مصادر اندلسية غالبة وأعجمية وعامية ،وأدرجت في هذه التكملة المعجمية مداخل كثيرا ما تنتسب الى اللغة العامية المقولة أو الالفاظ الأعجمية التي لا صلة لها بالفصحى ومستوياتها. وليس لدينا ما يثبت الى اليوم أن العرب من أهل النهضة قد بادروا بمشروع في هذا الميدان، لاسيما في ميدان المعجم التاريخي العربي العام. ولقد وجدت بعض المحاولات في ميادين معينة منها أعمال محمد ابو النجا في المسرح [24] ومحمد رشاد الحمزاوي في اللسانيات [25] وعلوم الادارة [26]

---

(22) ـ Dozy, Supplement aux dictionaries arabes

(23) ـ نفس المرجع انظر معاني مادة «بحر» مثلا

(24) ـ محمد ابو النجا وقد وضع معجما مقارنا يشمل مصطلحات المسرح العربي مستخرجة من المعاجم وكتب الآداب

(25) ـ محمد رشاد الحمزاوي : المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية ـ تونس-الجزائر 1987

(26) – محمد رشاد الحمزاوي : معجم المصطلحات الادارية في تونس من خلال الرّائد التونسيّ (1860 1900) وهو تحت الطبع.

2 ـ 3 : وعـلى هذا الاساس تعتبر مقاربة المستشرق الألماني فيشر، وعضـو مجمع اللغة العربية بالقاهرة مقاربة رائدة في مستوى المعجم العربي التاريخي . فالمؤرخ لمعجمه يلاحظ أنه عرض مشروعـه على جمعية فقهـاء اللغـة الألمان في مؤتمرهم بمدينة بال سنة 1907 ، كما عرضه على مؤتمرين استشراقيين بكبنهاغن وأثينا سنتي 1908 و 1912 . وقد حضر الامير أحمد فؤاد المؤتمـر الثاني، واليه يعـود تكوين مجمع فؤاد الاول للغة العـربية . واعتمـد فيشر في معجمـه على أعـمال مستشرقين سابقـين منهم A. Fleischer و H. Thorbecke وعـلى نصوص عربية جمعهـا المستشرقـون A. Bevan و J. Ledersen و G. Bergsträsser و A. Grohmann و F. Krenkow الذين استقرأوا كليا أو جزئيا القـرآن الكـريم، وحـديث مسلم، ومؤلفات أدبية [27] ومخـطوطـات عربية قديمـة مثل كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني الخ

ولقـد عرض مشروعـه على مجمـع العـربية بالقاهرة سنة 1936 بمـؤازرة المـسـتشرق الايطالي نلينـو (1872 ـ 1938)[28]، فأقـره في المـرسـوم الخاص بانشاء مجمع اللغة العربية إذ تنص المادة الثانية (ب) على «ان يقوم المجمع بوضع معجم تاريخي للغة العربية» بدعم مادي ومعنوي من الحكومة المصرية . فيقـول فيشر في هذا الصـدد «وأخيرا بدأ في سنة 1936 التطور السعيد، إذ قررت الحكومة المصرية في خريف هذه السنة بناء على اقتراح مجمع اللغة العربية بالقاهرة . . . السـماح لي بإتمـام معجمي بالقـاهـرة، وان تتحمل نفقات

---

(27) ـ محمد رشاد الحمزاوي : أعمال مجمع القاهرة ص 509

(28) ـ نفس المرجع ص 96

طبعه . . . وهكذا برهنت الحكومة المصرية والمجمع على ان رعـاية اللغـة العربية وفق ما تجلى في المرسوم الخاص بانشاء المجمـع ـ أمر يعنيها كل العناية» [29]. واشتغل في معجمه حتى منعته من ذلك الحرب العالمية الثانية سنة 1949 ،وتوفى ولم يتمم عمله الذي كان من المنتظر الانتهاء منه في مدة جديرة بالعناية إذ يقول: «ظننت أني في حاجة الى ست سنوات أو سبـع لاتمـامـه، والآن أرجح ان يستغرق هذا العمل ثماني سنوات أو تسعا، فتصنيف معجم كبير من الأمور التي يجب ان يتسع لها الزمن. ونحن نرى ان السيد مرتضى الزبيدي قد قضى أربعة عشر عاما في تصنيف تاج العروس على الرغم من ان جله مأخوذ من لسان العرب.» [30].

وتخـلى مجمـع اللغة العربية عن هذا المشروع باعتبار ان الشروط العلمية والمالية والفنية والانسانية لم تتوفر في المجمع للقيام بهذه المهمة التي استعاض عنها بالمعجم الكبير. [31] فلقد لاحظ ابراهيم مدكور، رئيس المجمع الحالي ان انجاز المعجم يستوجب استقراء مؤلفات عديدة منها ما لم يعتمد، ومنهـا ما لم يستكشف، وهي ضرورية لوضع معجم يشمل مختلف مراحل اللغة حتى القرن الثالث الهجري مما يفيد بأن وضع معجم تاريخي عربي، قضية سابقة لأوانها [32]. وتولت جامعة توبنغن (Tobingen) بالمانيا الاتحادية بإشراف الاستاذين

---

(29) ـ فيشر: المجمع اللغوي التاريخي ص 31
(30) ـ نفس المرجع ص 31 ـ 32
(31) ـ مجمع اللغة العربية ـ المعجم الكبير ـ ألهمزة ـ أخي
(32) ـ ابراهيم مدكور: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما ـ القاهرة 1964 ص 66

ميللر وشبيتالر العناية به حسب منهجية جديدة،[33] مراحلها متناثرة ومتباطئة، لا تفيدنا بأن مشروع فيشر مازال قائما حسب تصورة الاول، كما جاء في النموذج الذي نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

III أهداف فيشر ومنهجياته: عرض ونقد:

2 ـ 4: إن كان مجمع اللغة العربية قد أطلق على هذا المعجم في تأليفه ونصوصه[34] «المعجم اللغوي التاريخي» و «معجم فيشر الخاص»، فان صاحبه قد ضبط أهدافه بقوله: «ومنتهى الكمال لمعجم عصري ان يكون معجما تاريخيا. ويجب ان يحوي المعجم التاريخي كل كلمة تداولت في اللغة. فإن جميع الكلمات المتداولة في لغة ما، لها حقوق متساوية فيها، وفي ان تعرض وتستوضح أطوارها التاريخية في معجماتها، ولكن المعجمات العربية بعيدة كل البعد عن وجهة النظرة هذه، إذ انها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة بل تقتصر على إيضاح الاتجاه النموذجي لها، أعني ان مصنفيها إنما أرادوا التفرقة الدقيقة بين الفصيح من العربية وغير الفصيح، وذلك بوضع قانون للاستعمال الصحيح للكلمات ويدل هذا الاتجاه ـ دون شك ـ على إحساس لغوي دقيق عند اللغويين ـ ولكنه عاق القوة الحيوية الدافعة عن التقدم والتوسع».[35]

---

(33) ـ Worterbuch der Klassischen Arabischensprache Band 1 - Wiesbaden 1970; 582 p

والملاحظ ان اسمه قد تبدل فأصبح «معجم اللغة العربية الكلاسيكية» وحذف منه مفهوم التاريخية فضلا عن ان مداخله قد تغيرت تماما.

(34) ـ انظر الحاشية (4) وهو يحتوي على المقدمة والمصادر ومتن المعجم ـ ويشتمل على 53 صفحة

(35) ـ أ. فيشر: المعجم ص 7

فما هو موضوع هذا المعجم ؟ فهو حسب صاحبه «معجم تاريخي للآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، أي حتى منتهى ما وصلت اليه اللغة العربية الفصحى من الكمال.» [36] ولقد سن فيشر منهجيات لطرق هذا الموضوع وحصرها في سبع وجهات نظر وهي: الوجهات التاريخية والاشتقاقية، والتصريفية، والتعبيرية والنحوية، والبيانية والاسلوبية [37]. ويكفينا في هذا العرض ان نهتم بالوجهتين التاريخية والاسلوبية لأن الوجهة التاريخية «تجاوز كل وجهات النظر هذه في القيمة» [38]، واعتبار تطور اللغة المستمر وتطور الفاظها التي يجب استخراجها من الشواهد ذات الطابع الخاص أي «تلك التي تدلّ بحال من الاحوال على الاطوار التاريخية للكلمة» [39]، وذلك بضبط كل المواضع التي وردت فيها الكلمة لأول مرة في الآداب العربية دون اهمال الكلمات الرائجة التي لم تدخل الكتب، فضلا عن العناية بآخر تطورها، ومواتها قديما وحديثا، واندثار معناها، وقيام مرادف لها مع تبيان المواضع التي تقدم اوضح صورة من التطور التاريخي للكلمة ويقول في شأن الشواهد: «واذا تعددت الشواهد يقتصر على اوضحها معنى، ويقدم المنسوب الى قائله ويهمل الآخر.» [40] والملاحظ ان فيشر لم يخف مالهذه المقاربة من قضايا وصعاب، لاسيما في مستوى الموارد والمصادر المعرضة للنقد إن قليلا او كثيرا.

2 ـ 5 : أمّا الوجهة الاسلوبية فغايتها **المحيط اللغوي** الذي

---

(36) ـ نفس المرجع ص 25
(37) ـ نفس المرجع ص 22 ـ 25
(38) ـ نفس المرجع ص 22
(39) ـ نفس المرجع
(40) ـ نفس المرجع ص 23

تستعمل فيه الكلمة أو التعبير أو التركيب استعمالا عاما [41] سواء في محيط عام مثل لغة القرآن أو الحديث أو الشعر، أو في محيط خاص كالاسلوب الشخصي، «لأنه قد يميل مؤلف إلى استعمال كلمة أو تركيب بالذات لا يجيء إلا لمامًا أو لا يجيء بتاتا عند غيره.» [42].

فما هو شأن المصادر اللغوية المعتمدة في هذا المعجم ؟ يتخذ المؤلف منها موقفا مبدئيا عاما لا يفرط في اي شيء ابتداء «بالكتابة المنقوشة المعروفة بكتابة النمارة من القرن الرابع الميلادي، ومنتهيا بالعهد السابق ذكره [أي القرن الثالث الهجري]، أعني انه يتناول الكلمات الموجودة في القرآن والحديث والشعر، والامثال، والمؤلفات التاريخية، والجغرافية، وكتب الآداب، والكتابات المنقوشة، والمخطوطات على أوراق البردي، وعلى النقود مادامت انواع الآداب الثمانية المذكورة لم تتجاوز الحد المذكور. . . وقد استثنيت من ذلك في الغالب الكتب الفنية الا اني توسعت في أخذ المصطلحات منها.» [43]. فالمعجم لا يعتمد إلا على المتون التي لها به صلة حتى يستخرج تحديد عمر الكلمة ومعانيها، ومنها دون غيرها.

ولقد أضاف فيشر مبدءا ثانيا عاما مفاده اعتماد بعض المعاجم الخارجة عن نطاق المدة المحدودة، لأنها تحتوي على كلمات وتعابير، لم توجد لها شواهد في مصادره المقررة ولأن مؤلفي تلك المعاجم «كان لديهم مادة من لغة الكتابة ولغة

---

(41) ـ نفس المرجع ص 25
(42) ـ نفس المرجع
(43) ـ نفس المرجع ص 26

الكلام انتهت إليهم، وليس في مقدورنا اليوم الحصول عليها» [44].

اعتمد فيشر في مؤلفه على 264 مصدرا ومرجعا عربيا و26 مصدرا ومرجعا استشراقيا أتت مذكورة في المقدمة، واشتملت على جميع انواع الشعر والنثر في معالمها الكبرى، مما يفيد بقيمة المكتبة اللغوية التي تدعم هذا العمل المعجمي الجبار.

6 ـ 1 : ان موقفنا من هذه المبادرة يدعونا الى اعتبارها مقاربة جريئة كان من الضروري ومن المتحتم الاقدام عليها. وكان من الأجدر ان تصدر عن جهة علمية عربية. وهي تخضع لمعايير ومقاييس معينة منها:

1 : ضرورة وضع معجم تاريخي للغة العربية في مراحلها المختلفة باعتماد منهجية المراحل حسب عهود مترابطة اجتماعيا وثقافيا. وفي هذه المرحلية منفعة لأنها بقدرما تركز على عنصر التطور في اللغة (الديكرونية) اي دراستها من مرحلة الى اخرى، فإنها تعتني بعنصر استقرارها (السنكرونية) اي دراستها في مرحلة ثابتة ومعينة نسبيا.

2 : الاقتصار مبدئيا على المظهر التاريخي دون غيره اي على تطور الكلمة من بدايتها الى آخر مرحلة من مختلف ترحالها، وذلك في نطاق الآداب العربية دون غيرها، **مما يعني الاعتناء نسبيا** بأصول الكلمات وجذورها الأولى حتى لا يخلط بين المعجم التاريخي والمعجم الأصولي. ولقد أكد فيشر على ان معجمه مخصص لكلمات في الآداب العربية انطلاقا من نقوش النمارة الى القرن الثالث الهجري.

---

(44) ـ نفس المرجع ص 26

3 : الاهتمام بالفصيح المكتوب مع اعتناء عند الضرورة بالألفاظ الاعجمية، لا سيما بقضية ترتيبها في المعجم إذ يقول «والكلمات الأعجمية المعربة الزائدة على ثلاثة أحرف تتبع الكلمات العربية في ترتيب المعجم. . . إن تصرَّف فيها العرب بالاشتقاق مثل ابريق، دكان، ديباج. . . نجدها في مادة برق، ودكن، ودبج». [45].

4 : اعتماد كل النصوص المكتوبة، والمنقوشة والمخطوطة مهما كانت أجناسها الأدبية، ومهما كانت ميادين المعرفة التي تنتسب اليها، على ان محتوى المعجم التاريخي لا يرتكز على اللغة العلمية المختصة إلّا بمقدار لم يضبطه المؤلف [46].

6 ـ 2 : ولاشكّ ان هذه المقاييس الاربعة العامة تحتاج الى نظر اليوم لأن الدراسات اللسانية والدراسات المعجمية بالخصوص، قد وفرت لنا تصورات ومفاهيم ومنهجيات يحسن الاستئناس بها في هذا الشأن ومنها:

ـ أ ـ ضبط وظيفة المعجم المنتظر: فإن فيشر لم يعين بالتدقيق المستفيدين منه ومقاصده من ذلك المعجم حتى ندرك مفهوم التأريخ للكلمات، لأن التأريخ للكلمات في الآداب العربية لا يعني بالضرورة البحث عن أصولها وصلاتها بلغات أخرى. فإن كانت **الأصولية تحتاج بالضرورة للتأريخ فإن التأريخ للكلمات** لا يحتاج بالضرورة للأصولية في كل الأحوال. إلا ان فيشر قد مزج بين الاثنين. إذ أنّه قد أرجع أصل كلمة «أبّا» في الآية و «فاكهة وأبا» إلى الآرمية إبّا والى الأكدية: إنْبُو وأُنبو أي الثمرة والفاكهة [47]، أمّا أبَدُ فإنه قد

---

(45) ـ نفس المرجع ص 27

(46) ـ لا يتجاوز هذا المقدار 20٪ في معجم اكسفور الانكليزي وكنز اللغة الفرنسية

(47) ـ أ. فيشر، المعجم ص 26

عكس فيها طريقته، فذكر أوّلا أصلها السامي المشترك وصلته بالأثيوبية في معنى «ضل، وسار على غير هدى» [48].
فالسؤال المطروح هو ما يلي: **هل أن كل كلمة عربية تحتاج إلى أصل من الضروري ان يكون ناشئا من أخواتها الساميات إطلاقا كما بين لنا المثالان السابقان ؟** إن علم الأصولية علم ناشيء، له منافع لا تنكر، على شرط الا يخضع لمبدئيات مسبقة منها أن العربية مدينة لغيرها في جميع أصولها الى غيرها.

أمّا فيما يتعلق بالمصادر المجموعة التي قدمها لنا المؤلف فهي تبلغ 264، أختيرت في جلها وعن قصد من المصادر المجموعة التي حققها ونشرها المستشرقون دون غيرهم. ولقد اختلطت فيها النصوص المدونات بالمراجع الثانوية، لأن المؤلف لم يفصل بين النصوص الأصول والمراجع الثانوية التي يستعين بها للاستدراك على بعض السقطات أو الفراغات في النصوص الأصلية. فلقد حشر النوعين من النصوص في زمرة واحدة كأنها متساوية في القيمة من حيث صلتها بالمعجم التاريخي. ولقد سكت عن هذه القضية المهمة التي تحتاج الى توضيح.

6 ـ 3 : واعتبارا إلى ما سبق فإن موقفه غيْر واضح تمام الوضوح في معالجة قضية الوجهات السبع التي يجب ان تعالج ضمنها كل كلمة [الوجهات التاريخية والاشتقاقية، والتصريفية والتعبيرية، والنحوية، والبيانية والاسلوبية]. فالحجة تبدو غير مقنعة عندما يقول في شأن الوجهة التاريخية «ويجب أن تفيد المواضع التي يتبين منها انها تقدم أوضح صورة من التطور التاريخي للكلمة ولكن هذه الطريق تتطلب حتما من القارىء ان يكون ملمّا بتاريخ آداب اللّغة واقفا على تاريخ حياة الناظمين

(48) ـ نفس المرجع ص 32

والناثرين من ابنائها».[49] فالالمام بتاريخ آداب اللغة المعنية بالامر ليست آلية كافية لادراك تاريخ الكلمات وتطورها.

ولقد تطرّق فيشر إلى مفهوم هام جدا وهو مفهوم الفصاحة لأنه اعتبر ان معجمه مخصص للغة العربية الفصحى دون غيرها دون ان يوضح لنا موقفه من معايير تلك الفصاحة ومن مصادرها المختارة التي تشهد على تطور الكلمات. فلقد لاحظنا مثلا خلو قائمة مصادره من كل ما له شأن بلحن العامة، وإن كان قد ورد منها ما له صلة بالمعرب والدخيل،مثل كتاب المعرب للجواليقي. ولا بدّ ان نشير كذلك إلى الموسوعية المستبدة ببعض مداخل معجم فيشر،مثل المدخل المخصص للالف الذي استغرق 22 صفحة، تغلبت فيها المسائل الصرفية والنحوية على المسائل المعجمية. ولابد أن ننبه كذلك الى إدراجه مداخل لا نعلم إن كانت تنسب الى الفترة المدروسة من ذلك كلمة «آهندال» فارسية معربة وتفيد «شجر الحديد». ولقد استقرأها عن ابن الفقيه[50] الذي لم يرد مذكورا في مصادره[51]. ويحتج بالمزهر للسيوطي رواية عن ابن عباس، والسيوطي ليس من مصادره ومراجعة، فضلا عن انه متأخر عن الفترة المدروسة.

والغالب على الظن ان النموذج الذي تركه لنا فيشر ثري بايجابياته وسلبياته،مما يدعونا الى اعتباره وثيقة اساسية تستحق العناية من الضروري ان نطبق عليها ما زودتنا به اللسانيات الحديثة من مقاربات ومنهجيات نظرية وتقنيات تطبيقية في مستوى الجمع والوضع والتعريف،[52] وخاصة في مستوى

(49) ـ نفس المرجع ص 23
(50) ـ نفس المرجع ص 22
(51) ـ نفس المرجع ص 31
(52) ـ محمد رشاد الحمزاوي: من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا ص 149 وما بعدها

الفصـاحـة ومـواكبتهـا للتـطور اللغوي، مما يدعو إلى ضبط مقاييسها حسب دراسة ميدانية وصفية وتاريخية مقارنة [53].

ويسعدني في هذه المناسبة أن أعلن عن اننا قررنا في نطاق الجامعة التونسية أن نشرع في سنة 1990 في دراسة المنهجيات والآليات التي ستساعدنا في ظرف سنتين عل الابتداء في وضع المعجم التاريخي العربي وانجازه، راجين ان يسهم فيه كل من له رغبة في تحقيقه، وذلك في نطاق اتفاقات وتعهدات علمية يمكن النـظر فيها حسبما يربطنا من وشائج التعاون بالمراكز والمؤسسات العلمية بالأقطار الشقيقة والصديقة.

محمد رشاد الحمزاوي

---

(53) ـ محمد رشاد الحمزاوي: العربية والحداثة او الفصاحة فصاحات ص 11 ـ 26